نظرية المعرفة عند آير (المقالة الثانية)

اد/ناصر هاشم محمد –أستاذ الفلسفة بكلية الآداب جامعة أسيوط

يعد منهج التحليل المنطقي لقضايا العلم هو المدخل الضروري واللازم الذي ارتكزت عليه نظرية آير في المعرفة، والتي احتلت مكان الصدارة في فلسفة آير العلمية، فهي القضية الرئيسية التي شغلت آير في معظم مؤلفاته، ويرجع هذا الاهتمام الزائد بنظرية المعرفة عند آير إلى محاولته الجادة والمتميزة لإيجاد معيار للتميز بين العلم واللاعلم أو بين المعرفة العلمية أو المعرفة اللاعلمية.

وقد تعددت طرق ومناهج البحث في قضية التميز بين العلم واللاعلم واختلفت آراء الفلاسفة حولها إلى حد الصراع ومن هنا تأتي أهمية بحث هذه القضية ودراستها في إطارها الثقافي والاجتماعي والتاريخي مع الاستفادة من إنجازات العلوم المختلفة خاصة العلوم الإنسانية التي لعبت دوراً كبيراً في تغيير مسار التفكير الفلسفي والدخول في مواجهة مع فلسفة اتخذت لنفسها اسم "الفلسفة العلمية" ونعني بها الوضعية المنطقية.

وإذا كان آير يحرص كل الحرص على إبراز جوانب الاتفاق والاختلاف بين الفلسفة والعلم فقد كان ذلك على أساس أن نظرية المعرفة كما جاءت عند الفلاسفة الكلاسيكيين أو التقليديين ليست هي الابستمولوجيا التي جاءت في العلم الحديث ويقصد بها آير من الفلاسفة الذين يرفضوا القول بالفصل التام بين العلم والفلسفة لأن تطور الفلسفة عنده يرتبط إلى حد كبير بتطور العلم، وكل منهما يعاون الآخر، ومهمة الفلسفة هي أن تعمل في وفاق مع الأفكار على نحو ما تتضح في الوقائع العينية للعالم الواقعي، وهي تسعى نحو تلك التعميمات التي تحدد الواقعية الكاملة للوقائع التي بدونها تغوص أية واقعة في التجريد، بينما يقوم العلم بالتجريد وينقع بفهم الواقعة على أساس من بعض جوانبها الجوهرية

أي أن وظيفة العلم كما حددها آير وسائر الوضعيين هي وصف الوقائع التجريبية، فالمعرفة العلمية ليست سوى أبسط ما يمكن من وصف للعلاقات بين "العناصر" بأقل جهد عقلي فمهمة فيلسوف العلم هي تصنيف الوقائع والنظر في علاقتها المتبادلة ووصف سياقاتها أي يطبق المنهج العلمي لهذا كان آير يردد في أكثر من موضع "ومن الخطأ أن نضع تمييزاً حاسماً بين الفلسفة والعلم، إن ما يجب أن نميز بينهما هي الأشكال المنطقية والأشكال التأملية للعلم. ، وأن نعلن أن الفلسفة يجب أن تتطور إلى منطق العلوم بمعنى أن نميز

بين نشاط صياغة الفروض، ونشاط توضيح العلاقات المنطقية لهذه الفروض وتعريف الرموز التي تظهر فيها، ولا يهم أن نسمي هذا الذي يمارس النشاط الثاني فيلسوفاً أو عالماًوغن كان ذلك لا يعني أن تؤدي الفلسفة ما يؤديه العلم، بل إن ما تقوم به الفلسفة هو التوضيح لقضايا العلم فقط ، وهو ما أكده كارناب أيضاً بقوله: "إننا لسنا مدرسة فلسفية وأننا لا نضع أية مقالات فلسفية أياً كانت فأي مدرسة فلسفية حديثة رغم رفضها للآراء السابقة عليها إلا أنها تضع حلولاً للمشاكل القديمة، لكننا لا نقدم أية حلول للمشاكل الفلسفية، وبدلاً من ذلك نحن نرفض كل المشاكل الفلسفية سواء أكانت خاصة بالميتافيزيقا أم بالأخلاق أم بنظرية المعرفة لأن ما نهتم به هو التحليل المنطقي .

وهكذا يتبين لنا أن فلسفة العلوم عند آير ليست سوى شكل من أشكال المنطق قوامه منهج تحليلي نقدي ينصب على العلم منذ نشأته، ثم على مناهج البحث العلمي ونقد المعرفة العلمية يفضي بنا إلى نظرية مفسرة للمعرفة، فالعلم عند آير لا يستبعد الفلسفة بل يحتاج إليها، ولا يعني ذلك أم كلا منهما شيء واحد، لأن العلم ليس هو الفلسفة، والفلسفة ليست علماً، وإذا كان للفلاسفة نظرياتهم إلا أن هذه النظريات لا تمكنهم من خلق توقعات معينة يمكن إثباتها أو دحضها بطريقة تجريبية كما هو الحال بالنسبة للنظريات العلمية

وإذا كان هناك علوم لا تستند إلى الخبرة الحسية كالرياضية البحتة، إلا أن هذه القضايا وإن كانت غير قابلة للتحقق التجريبي، وغير خاضعة للملاحظة التجريبية فإن هناك مستويات من الإجراءات التي يمكننا عن طريقها الجزم بصدق أو كذب قضاياها

والقول السابق من آير يؤكد استبعاد للفلسفة بكليتها والمقصود هنا الفلسفة التقليدية وهو ما أكده معاصره فتجنشتين حين قال: "معظم ما كتب من قضايا وما سئل من أسئلة عن الموضوعات الفلسفية ليس باطلاً فحسب، بل خالياً من المعنى"

إلا أن هذا الاستبعاد للفلسفة أنكره الكثير من الفلاسفة المعاصرين خاصة فلاسفة العلم منهم لأن العلم بدون الفلسفة قوة عمياء يمكن توظيفها لخدمة البشرية، كما يمكن وبنفس القدر توجيهها لدمار العالم والإنسان، فالعلم أحوج ما يكون إلى القيم الإنسانية الرفيعة التي تقوده نحو خير الإنسان ورفاهيته وهذه هي المهمة الرئيسية للفلسفة، كما أن العلم لا يفكر في ذاته، لأن فلسفة العلم هي التي تتكفل بذلك العبء وتضطلع

بالتفكير في ذات العلم في منهجه ومنطقه وخصائص المعرفة العلمية وشروطها وطبائع تقدمها وكيفياته وعوامله على الإجمال، وإذا كان العلم يكون عن الأشياء نظرة جزئية، فإن الفلسفة تحاول التعبير عن تلك الجوانب الواقعية التي قد يغفلها العلم، هذا إلى جانب أن إطار الفلسفة أعم وأكثر تجريداً من إطار العلم؛ نظراً لأن من شأن الفلسفة أن توسع رقعة بحثها حتى أنها لتريد أن تصور لنا الواقعي ككل"

ويمكن القول إن فلسفة العلم عند آير ليست سوى منطق للعلم، أي أنها تتعامل مع صورة العبارات العلمية أي مع منطقها الصوري أكثر من مضمونها، فهي تتعامل مع البنية المنطقية لها، ومع كل العبارات الممكنة، والتي يطلق عليها اسم القوانين العلمية أكثر من تعاملها مع عبارات خصوصية، مع الهيكل المنطقي لأي نظري علمية ممكنة أكثر من تعاملها مع نظريات علمية واقعية خصوصية، مع العلاقات المنطقية التي تنشأ بين عبارات البنية العلمية والاستنتاجات النظرية أكثر من تعاملها مع حجج علمية خصوصية

وبذلك يصبح من الخطأ الجسيم القول بأن الفلسفة تهتم بمحتوى كل علم أو القول بأن العلوم الخاصة تقدم لنا صوراً مختلفة للواقع، لأن الفروض التجريبية لا تشير إلى محتويات إحساساتنا، لهذا فهي تتشابه في أنها قواعد لتوقع الخبرة المستقبلية، كما أنه من النادر أن نكون محصورين في فروض علم واحد نريد تأسيس قانون يتعلق بخبرة ما، فآير إذن يؤكد وحدة العلوم وهو ما سبق إليه رائد الوضعية المنطقية موريس شليك حين دعا إلى إقامة فلسفة علمية تكون مهمتها توحيد العلوم.

وتبدو الأصالة والجدة عند آير في تأكيده على وحدة العلوم والفلسفة، فالفلسفة عنده لا تغامر بتقديم قضايا تختلف عن تلك التي تقدمها العلوم أو تخوض في ميادين أبعد من دائرة البحث العلمي، كما أنها لا تختبر صحة فروضنا العلمية أو لغتنا اليومية أو تؤكد على صدق قضية من القضايا فيقول آير: "إذا أراد الفيلسوف أن يثبت صدق ما يزعمه من أنه شريك في زيادة المعرفة الإنسانية، فلا يجوز له أن يحاول وصف الحقائق عن طريق التأمل الخالص، أو أن يبحث عن المبادئ الأولى، أو أن يصدر أحكاماً قبلية عن صحة ما نعتقد في صدقه على أساس التجربة، بل ينبغي أن يحصر مجهوده في التوضيح والتحليل

إن أقصى ما تستطيع الفلسفة فعله عند آير هو أن توضح فقط المعيار الذي نستخدمه لتحديد صدق أو كذب مجموعة من القضايا، لهذا فقضايا الفلسفة قضايا لغوية، لن الفلسفة ليست في مركز يسمح لها بتحديد قيمة أية نظرية علمية، وإنما هي تحلل قضاياها فقط)

وفي هذا الصدد يشبه آير عمل العالم بعمل الرسام، وعمل الفيلسوف أو المنطقي بعمل الناقد الفني، ويدعو آير إلى ضرورة التمييز بين عمل كل منهما، فالرسام قد لا يكون ناقداً جيداً حتى بالنسبة لعلمه الخاص، والناقد الفني ليس في حاجة أن يكون فناناً، وكما هو الحال بالنسبة للرسام الذي لا يكون ناقداً محترفاً يكون حال هؤلاء العلماء الذين يفلسفون علمهم الخاص، فيأتي عملهم ساذجاً ومعيباً، ومن ناحية أخرى ينبغي أن يكون الناقد على علم بعمل الفنان

إن آير يؤكد على أنه بدون الخبرة في تناول النظريات العلمية يكون من الصعب توقع التفسير الصحيح لتلك النظريات لقد أكد آير على أن فلاسفة العلم يحاولون إقامة نظرياتهم الفلسفية في ضوء النتائج العلمية أو الاكتشافات العلمية، أي أن النظريات الفلسفية لابد أن تتصل بالنظريات العلمية، وهو ما يوافقه عليه الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار الذي يقول: "إن الفلسفة العلمية لا ترى ثمة مذهباً واقعياً مطلقاً ولا مذهباً عقلياً مطلقاً وأنه ينبغي ألا ننطلق من موقف فلسفي عام حتى نحكم على الفكر العلمي الذي سيغدو عاجلاً أو آجلاً هو الموضوع الرئيسي في المناظرة الفلسفية"

وقد حرص آير على بيان الاختلافات الجوهرية بين نظرية المعرفة بمعناها الفلسفي العام، وبين الأبستمولوجيا بمعناها الدقيق الخاص، فإذا كان الاثنان يتفقان في المظهر العام البارز على صعيد التحليل الفلسفي المجرد فهما يختلفان من حيث الواقع التاريخي؛لأن هذا الواقع التاريخي لتطور العلوم قد فرض نوعاً من الانفصال بينهما أي نوعاً من القطيعة الأبستمولوجيا وهذه القطيعة أدت إلى أن أصبحت الأبستمولوجيا من اختصاص العلماء، بينما بقيت نظرية المعرفة بمشاكلها التقليدية من مشاغل الفلاسفة فالأبستمولوجيا تطرح نفسها على العالم المختص في ميدان اختصاصه وساعة ممارسته .